الدكتور شميل وفلسفة النشوء

ظهر كتاب الدكتور شميل في فلسفة النشوء والارتقاء منذ شهرين تقريباً فاستقبلته الصحافة العربية استقبالاً لا يخرج عن المألوف ولم يتصدَّ لانتقاده الاَّ القليل منها مع ان الكتاب من المباحث الخطيرة التي تشغل اليوم علماء الغرب ولصاحبه شهرة طائرة في عالم الادب والطب وقد قضى في خدمة القلم ثلاثين سنة يكتب ويؤلف وينظم في مواضيع شتى من علم وسياسة واجتماع. وهو ممتاز باستقلال في الرأي وجرأة في الكتابة وغيرة حقيقية على نشر مبادىء العلم الصحيح والاصلاح العمراني. وقد بحثت عن السبب في هذا التقصير او التغاضي من حملة الاقلام فوجدتهُ غموض هذا العلم على السواد الاعظم من قرَّاء العربية وجرائدنا كما تعلم تسعى في افادة قرائها ولكنها تسعى قبل ذلك في ارضائهم وليست المسائل العلمية مما يرضي القارىء في جنب ما تقدمهُ له الروايات والاخبار السياسية من التفكهة والسرور

وما اطول تبرئة الكتبة من هذا التقصير الحاصل بين القراء والمطالعات العلمية فاي فضل لهم وهم قادة الافكار اذا لم يكن فيهم من يعرف ان يجيب الى القارىء ما يكتب فيجتمعون امام المسائل العلمية خوفاً من غموضها وعجزاً عن وضعها في اسلوب جديد يقرب الاقصى ويزيل الاشكال ويدفع الملل. ولولا المقتطف وهو مجلة العلم الوحيدة والطلال الذي لا يخلو من الاخبار العلمية لكان قراء العربية في معزل تام عما تلد ادمغة الرجال وتخلق حركة العلم الدائمة في بلاد المصانع والفنون

على ان الدكتور شميل تلافى هذا السبب لان الكتاب الذي اختار تعريبهُ شرحٌ لمذهب داروين صريح البيان بسيط الاسلوب فضلاً عن ان لغة المعرب جامعة بين فصاحة التركيب ورشاقة التعبير وانشاؤهُ سهل المأخذ قريب المنال وهو لم يقف فيهِ عند حد الترجمة بل ذيلهُ برسالة بليغة خطها رداً على منتقديهِ وزاد عليهِ مقدمة جمع فيها بين تخيل الشاعر ونظر الفيلسوف ثم اضاف اليهِ في الطبعة الجديدة مقدمة ثانية فلسفية وخاتمة لا تقل عن المقدمة فصاحة وتمحيصاً للحقائق على وجه التعميم

وقد كنت قرأت الطبعة الاولى لشرح مختار وانا حديث السن فوجدت من النفس ارتياحاً ان اعود اليهِ بعد مرور ١٥ سنة وزاد سروري انهُ لم يخلُ من طلاوة الجديد على قدمهِ فضلاً عما جرى بهِ يراع المعرب السيال في المقدمة التي تمثل لك تاريخ الانسان منذ طريق العلم منذ خطا الخطوة الاولى اليهِ واتصرافهُ في درس الشرائع والآداب الى غاية غير

عملية قبل ان يميل نحو الفلسفة ودرس شرائع الطبيعة ثم تظهر فضل العلوم الكونية في ارتقاء الصنائع والفنون وكسر قيود الاستعباد السياسي والديني وتمشي الانسان نحو حكم عادل جمهوري بتطبيق مذهب النشوء على كل ما في الخليقة . وقد انتهى فيها وهو الطبيب الى فضل هذا العلم على الطب باطلاق نواميسه عليه وسر في كلامه على ذكر المناعة وعلاقتها بانواع البكروب وتبايناته . وابدى رأياً لم يسلم من الانتقاد وانرد (راجع مقتطف مايو ويوليو) والخاص من كلامه انهُ يعلق اهمية كبرى على هذا التقسيم ينبني عليه تعليلاً لا يخلو من الحسارة مع ان مختبر نفسهُ يقول انهُ يصعب التمييز بين الانواع والتباينات . وهيكل ينصح بعدم تضييع الوقت بتنظيم هذا الفرق فما التباينات الاَّ «انواع في حال النشأة» . ورب صفة البسها النوع لثبوتها ثم بدت لك متغيرة فنزعتها عنهُ . فضلاً عن ذلك فاية فائدة عملية من وراء هذا ونحن نعلم اليوم الخطة التي انتهجها علم البكتريولوجيا في ايجاد المناعة . وقد عد الدكتور مكروب السل من الانواع الاشد ثبوتاً فما قولهُ بسل العصافير وسل الاسماك وسل البقر ؟ واستشهد على ثبوته بعدم شفاء الداء مع ان حوادث شفائهِ غير نادرة وفي التشريح بعد الموت ما يدفع كل ريب . وقد جاء في الفقرة التالية من كلامهِ على اكتشاف مصل شاف واقٍ لكل داء انهُ يجب ان يكون ممكناً في الطاعون والكوليرا واظن هذا الخطأ من المطبعة لان مصل الطاعون الشافي والواقي معاً موجود منذ سنين

وفي هذه الطبعة الجديدة لشرح مختبر تعليقات كثيرة للمؤلف انجبتي منها بوجه خاص ذكرهُ رأي كوستاف لبون في تلاشي المادة لانهُ رأي خطير قبل بهِ العلماء اليوم وينتظر منهُ حركة جديدة في الاكتشافات الكيماوية خصوصاً والعلمية عموماً

ولا يخفى ان مذهب النشوء والارتقاء لم يتقدم كثيراً من ٥٠ سنة الى اليوم بشهادة انصاره وخصومه ولكنهُ انتشر في اطراف البلاد المتمدنة وانضم اليهِ كثير من اهل العلم لانهُ اماط الحجاب الكثيف عن اسرار هذا الكون الواسع من عالم النجوم الى طبقات الارض الى الحياة الى العقل والاجتماع . وليس كل علماء التحول يعتقدون بالاختيار الطبيعي الذي وضعهُ داروين تفسيراً لمذهب لامارك قال كوستاف لبون « لا برهان على ان التحول يتم بالاختيار وربما صح اكتساب الصفات الخصوصية بغير التجمعات الوراثية عقباً في عقب ولكن هذا لا يهم فان العالم الذي انهضهُ داروين قد نهض وامكان التحول بوسائط طبيعية امر مقرر زعزع من اساسهِ مبدأ القائلين بالخلق » . ولا ريب ان افكار العلماء قد ارتقت بفضل هذه النهضة والبحث المتواصل لم يكن عقيماً وماجد فيهِ على قلتهِ يزيدهُ رسوخاً وايضاحاً من ذلك التحول

التجائي للعالم الهولاندي ده فريس وقد ذكره المقتطف في حينه وبعض الاحافير المكتشفة حديثاً واختامات جديدة في علم البيولوجيا . اما التحول التجائي فهو يوضح اشكالاً عظيماً ويزيل تناقضاً كبيراً لا يسلم منهُ القول بالتحول البطيء التدريجي كما يظهر لك من حساب الوقت اللازم لتحول الحياة فقد تسامحوا كم يتنضي من الزمن لتصير البقعة الملونة عيناً بشرية بهذا التطف في البناء او لتحول العقدة الاولى الى دماغ ذوات الدي فوصلوا الى ارقام هائلة لتحديد مدة الحياة تجاوزوا بها ثلاثمئة مليون سنة وهذا مناقض لآراء الطبيعيين والجيولوجيين لانهم يقولون ان الارض مهما طال عليها القدم فهي لم تبلغ هذا العمر . وقد ذكر دارون عن جهلان جزيرة مادیرا ان طبقهُ لا يطير لنقص في جناحيهِ وعلل ذلك بالاختيار الطبيعي وما يحصل من الضرر بسبب الامتياز وذلك ان ما كان منهُ قادراً على الطيران تسوقهُ الريح وتلقيهِ في البحر فيهلك ولا يبقى الا العاجز فينتقل تكوينهُ الى نسلهِ الخ (راجع صفحة ٩٨ من كتاب فلسفة النشوء والارتقاء) غير ان مشكوف تفرغ وهو في تلك الجزيرة لجمع جثث الجعل المطروحة في البحر وفاس اجنحتهُ بالجنحة الحي الذي لم يخاطر بحياتهِ في الطيران فلم يجد اوفى فرق ولذلك يظن انهُ يمكن التعليل عن نقص الجناح في بعض هذه الجعل بالتحول التجائي على مذهب ده فريس

واما الاحافير فاهمها ما وجدهُ ثلاثة من الرهبان مؤخراً في « شانيل اوسن » وقد ظن العلماء قبلاً انهم اكتشفوا الحلقة المفقودة بالتي اكتشفها الرجين دوبوا سنة ١٨٩٤ في جزيرة جاوى تحت انقاض البراكين الهامدة على ضفاف نهر بانكاوان وهي مؤلفة من جمجمة وعظم فخذ وسنين من الطواحن . وقد حاروا يومئذٍ في تسمية هذا الحيوان الجديد فقال بعضهم انسان يشبه القرد وقال اخرون بل قرد يشبه الانسان ووفق مكتشفهُ بين الفريقين فسماهُ الانسان القردي الا ان بعض العلماء ومنهم فرشو انكروا كون هذه البقايا هي لجسم واحد فبقيت الحقيقة ضائعة والحلقة مفقودة ولا يزال التحقيق جارياً هناك الى اليوم للعثور على جثة كاملة تكون فصل الخطاب . ولكن التقرير الذي قدمهُ « بول » استاذ علم الاحافير الى الانستيتو سنة ١٩٠٨ بشأن احفور « شانيل اوسن » كان لهُ صدى عظيم وهو هيكل غير كامل لرجل عجوز عاش في الطور الرباعي المتوسط طولهُ لا يتجاوز متراً وستين سنتيتراً وجمجمتهُ كبيرة ضخمة تدل ملامحها على التوحش وتشبه جمجمة « فندرتال » ويستنتج الاستاذ بول انها تمثل صنفاً قائماً بنفسهِ اوفى الى القرد منهُ الى الانسان ويضعهُ بين الحيوان الذي اكتشفهُ دبيوى واعرق السلائل البشرية في الهمجية . والذي يهم ذكرهُ ان هذا

الهيكل الناقص وجد في حفرة والرأس مسند الى كومة من الحجارة مما يدل على انهُ دُفن دفناً فأكرام الموتى موجود في ذلك الطور وهذا اسطع دليل على انهُ انسان فاذا صح كل هذا فقد تمت نبوة شفنهوزن وجورج بوشه الواردة في شرح بجفر (صفحة ١٤٨)

واما امتحانات البيولوجيا فاولها ما يسمونهُ المرسبة « precipitin » وقد ورد ذكرها في المقتطف لحضرة الدكتور ابي خاطر نقلاً عن كتاب متشكوف في « الطبيعة البشرية » وثانيها ما ذكرهُ « بوشز » الالماني انقلهُ على علاتهِ « اذا اخذت نقطة من الدم ونظرت اليها من خلال المكبرة رأيتها مؤلفة من سائل وكريات سابحة في ذلك السائل فهذه الكريات تختلف حجماً وشكلاً باختلاف الحيوان ولا يمكنك ان تمزج دم حيوان بدم حيوان اخر من غير نوعهِ دون ان تضر بهذه الكريات وتتلفها عن اخرها فاذا اخذت ارنباً مثلاً وحقنتها بدم هر فقد اضرمت حرباً عواناً في تلك الارنب تظهر حالاً اعراضها فيها فترتعش اعصابها وتنتفض مفاصلها وتستولي عليها تشنجات هائلة ويعاجلها الهلاك عن مدى حياتها . ولكن لهذا الامتزاج واضراره حدٌّ يقف عندهُ فدم الهر لا يقتل الهر والحيوانات القريبة النسب لا تتأذى من هذا الاختلاط كالكلب والذئب او الحصان والحمار . وقد أرتأى عالم من برلين اسمهُ «فريدانثال» ان يمزج دم القرد بدم الانسان فكانت النتيجة مختلفة بحسب مرتبة القرود في الارتقاء فان دم الانسان اذا مزج بدم القرود الدنيئة كان سماً بل ناراً آكلة واذا مزج بدم الشمبانزي كان برداً وسلاماً مما يدلك على وجود « قرابة دم » حقيقية بين هذا وذاك

واراني قد بعدت في سرد الشواهد فاسأل القارىء المعذرة واعود بهِ الى كتاب الدكتور شميل لاقول ان هذا الكتاب عزيز المذهب جم الفوائد خليق بان يكون في كل مكتبة وفي كل صدر وقد حق علينا الشكر للمؤلف لهذه الخدمة التي افاد بها قراء العربية والتي لا يدرك صعوبتها الا من عانى الكتابة في هذه المواضيع الوعرة . وقد قرأت الكتاب حتى اتيت على آخره واعدت قراءة الخاتمة البديعة التي جعلها لهُ كالطراز المعلم وكدت اطبق الكتاب وانا مأخوذ بما فيها من سحر البيان لولا اعتراض عنَّ لي على بعض ما جاء فيها . فوقفت مستوقفاً معي صديقي الدكتور يساعدني في رد حملتهِ المنكرة على كتاب الادب والرومان . يقول حضرتهُ ان الرومان تبذير لقوى الاجتماع وتضليل للعقل في آن واحد وليس هو من منتجات العقول الراقية في شيء واني اوافقهُ على ذلك اذا كان المقصود منهُ ما كان مفسدة للاخلاق ومثالاً للتهتك او ما لم يكن فيهِ غير ضرب وقتل وسرقة واحتيال كروكامبول واشباهه واكثر ما ينشر في ذيل الجرائد اليومية والاَّ فاني اعتقد ان ما يحييهِ سيلاً جارفاً هو

الحافظ لجمال الفكر والفن من هندسة ونقش وموسيقى وشعر وهو الذي يؤثر في تربية الشبيبة والاجتماع ويشد الصلات بين طبقات الشعوب ويحمل مصباح العلم الى اقصى العصور فهو لا ينافي العلم ولا يقف عثرة في سبيله بل يمشي واياه جنباً الى جنب - ان قوة التصور والخيال التي تنتج مثل هذه الكتب المسماة بالرومان هي كذلك المعادن اشعاع الفكر البشري على الاطلاق فكما ان اندفاع ذرات النور لا ينحصر بالراديوم بل هو اليوم من خصائص كل جسم اذا فعلت فيه المؤثرات اللازمة فالخيال والتصور من صفات كل دماغ وقد وافق الانسان من قبل ان يعرف الكتابة فكان يدفعه الى تصوير افكاره وترجمة شعوره على الحيا كل المنقوشة والتماثيل المحفوظة وفي النغمات الصاعدة من قلبه واوتاره . ولما افتتح امامه طريق الكتابة والطباعة اندفق هذا السيل منصرفاً الى الورق يرسم عليه ما يدور في تلك الجمجمة الصغيرة من جمال واحلام مبتدئاً بالجن وما يلابسه من الاوهام منتهياً بالحقائق التي قررها العلم في هذه الايام . ولولا قوة الخيال والتصور لما قدر نيوتن على اكتشاف الجاذبية وباستور على توهم الجراثيم قبل الوصول اليها ولا نيوتريه على وضع دعائم الكيمياء الحديثة وكثير من العلماء لتعذف هذه القوة او كونها فيهم مروا من امام المخترعات ولم ينتبهوا اليها وكما حملت هذه القوة على اجنحتها مثل اولئك الفحول في طريق الاختراع تحمل غيرهم في طريق آخر فيكون منهم كتبة اجتماع نظير « هيكو » و « متاندل » و « بورجه » وادب كرود وجمال كبارس وفروماتين ورقة كدام ستين وفلسفة كاناتول فرنس وتخلق لنا مصورين مثل بزاك وطبيعيين مثل ادم وبريشومت وفسيولوجيين مثل فلوبرت وزولا وموباسان . ومن يدري اذا لم يكن هذا نوعاً من توزيع العمل تجري احكامه على العالم العقلي ايضاً الا اذا كان حضرة الدكتور يريد ان يكون كل الناس علماء طبيعة وكيمياء وجيولوجيا

وعندي ان الرومان كما هو اليوم طريقة يقرن بها العقل على القيل كالشعر والروايات التمثيلية فاذا حاولت ان تبطل هذه الرياضة فقد ضغطت على العقل وقصصت جناحيه فلا تورث اولادنا في مستقبل السنين الا دماغاً بطيئاً وعقلاً مثاقلاً لا قدرة له على التحليق كالشعر لاستكشاف آفاق جديدة من هذا العالم المجهول

والدكتور نفسه مقيد بقوة هذا الخيال يندفع به من حيث لا يدري فيأتي بالشعر المنثور والنثر المنظوم ويحاول ان يسن لنا شرائع الاجتماع البشري في لغة الآلهة وتراه وهو الذي يقول عن نفسه انه لا يلبس القفاز (الكوانتي) كرهاً للتقيد يتقيد عن رضى بقافية من مثل « ضغطوا » و « ثمن »

فالدكتور شميل شاعر واديب من قبل ان يكون طبيباً وفيلسوفاً عمرانياً ومتى قرأت كتابه الثاني الذي سيصدر عن قريب وفيه صفوة ما كتب في الطب والادب واطلعت على ما فيه من التصورات السامية والمواضيع المختلفة مفرغة في قالب من الانشاء جديد لا يعرف التعقيد ولا التقليد اعجبت بهذا الاقتدار النادر في خلق المعاني وتصورها وتنسيقها وايقنت مثلي ان الدكتور شميل نابغة في الشرق لو قدّر لهُ ما لعلماء الغرب من مصانع كيماوية ومعامل زيولوجية يقرن بها العلم بالعمل والدرس بالاختبار لكان من المخترعين ولأضاف اسمهُ الى قائمة الذين يذكرهم في كتابه ويستشهد بهم في جدالهِ ويثني على اثرهم في اقوالهِ

بقي لي كلمة في ختام هذا الحديث اسرُّها للقارىء الكريم وهي ان مذهب التحول عام قد تأيدت دعائمهُ والانسان لم يتمعهُ اصلهُ الحيواني ان يكون كما هو وليس في استطاعة احد ان ينزع منهُ آمالهُ واحلامهُ . والذي في قلبهِ ايمان حقيقي لا يتألم اذا عرف انهُ في زمن من الازمان لم يكن جدهُ يحمل فقط على اكتافهِ جلد حيوان كما يفعل بعض المتوحشين اليوم بل كان هذا الجلد لاصقاً بدنهِ . لم يمت الشعر لان الشمس لم تعد تطلع حقيقةً من الشرق لم يمت لاننا عرفنا ان الارض تدور حولها والاحساس الديني انساني بأرقى معاني الكلمة فلا تزيلهُ معرفة الانسان تاريخهُ القديم وما هذه المعرفة سوى انتصار للعقل البشري لانهُ بحث من رمسهِ العميق ذلك الماضي المدفون منذ ملايين من السنين

الدكتور
نقولا فياض

باب تدبير المنزل

قد لخصنا هذا الباب لكي ندرج فيهِ كل ما يهم اهل البيت معرفتهُ من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وغير ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الطعام وطبخهُ

قوام الطعام اربعة اصناف وهي : المواد النتروجينية كاللحم الهبر والمادة الصمغية في القمح . والمواد الدهنية والزيتية والمواد الشائية والسكرية . والمواد المعدنية كبعض الاملاح . وكلها موجودة في اللبن فهو كافٍ للتغذية وحدهُ . اما اللحم فمؤلف من ثلاثة اصناف من هذه